نظريات نشأة اللغة

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً في موضوع نشأة اللغة الانسانية الأولى، ومدى نجاعة دراسة مثل هذا الموضوع بين معارضين للبحث فيه الى درجة التحريم، بوصفه موضوعاً غير ظني لا يمكن التحقق من صحة وقائعه، وبين مؤيدين بل ومصرين على مثل هذه البحوث اللغوية التي تنبع من التراث المعرفي الذي يصب في صميم الدراسات اللغوية وما يتعلق بها.

وقد تعددت الآراء والفرضيات التي تفسر نشأة اللغة الانسانية الأولى، من اعتماد المعقول والمنقول.

ومن أهم هذه النظريات (الفرضيات)، النظريات الآتية:

١ـ نظرية الالهام والوحي والتوقيف:

تذهب هذه النظرية الى أن الله الخالق أوحى الى الانسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء بعد أن علمه النطق. وقد ذهب الى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراقليط (ت٤٨٠ق.م)، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها لامي والفيلسوف دونالد. ومن علماء المسلمين في العصور الوسطى: أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وأبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، وأحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، الذي يرى أن لغة العرب توقيفية.

ويظهر من قول ابن فارس أن اللغة العربية هي لغة آدم (عليه السلام)؛ لأنه ذكر أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم (عليه السلام) قبل موته بـ٣٠٠ سنة. وقد ذكر السيوطي عن ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس، أن آدم (عليه السلام) كانت لغته في الجنة العربية.

وقيل: (كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً. إلا أن بعُد العهد وطال صار سريانياً، وكان يشاكل اللسان العربي الا أنه محرف.... وبقي اللسان في ولد أرفشذ بن سام الى أن وصل الى يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن، فنزل بنو اسماعيل، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي).

ويرى علماء العبرانية وتابعهم كثير من مشاهير علماء النصرانية وغيرهم: أن اللغة العبرانية هي اللغة التي فتق الله بها لسان آدم (عليه السلام) في ولده شيث حتى انتهت الى ابراهيم عن طريق عابر بن سام، ويستدلون على ذلك بعدد من الأسماء الواردة في حديث الخلق وما بعده الى الطوفان مثل آدم وعدن وفيشون وجيجون وغيرها أسماء عبرانية.

أدلة أصحاب التوقيف

يعتمد علماء الغرب المؤيدون لهذه النظرية على ما ورد بهذا الصدد في العهد القديم من (الانجيل): (والله خلق من طين جميع حيوانات الحقول، وجميع طيور السماء، ثم دعا آدم

(عليه السلام) ليرى كيف يسميها. وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الانسان. فوضع آدم (عليه السلام) أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة، ولطيور السماء ودواب الحقول).

وهذا النص لا يدل على شيء مما يقوله أصحاب هذه النظرية، بل يكاد يكون دليلاً على عكس النظرية.

ويرى الدكتور توفيق شاهين أن أبا عثمان الجاحظ ارتضى هذه النظرية، إذ قرر أن الله (سبحانه وتعالى) أنطق نبيه اسماعيل (عليه السلام) بالعربية من دون سابق تمهيد أو تعليم وأنه (تعالى) فطره على الفصاحة على غير النشوء والتمرين.

ويضيف القائلون بالتوقيف الى ذلك ثلاثة وجوه:

١ ـ أنه (سبحانه وتعالى) ذمَّ قوماً في اطلاقهم أسماء غير توقيفية في قوله تعالى: (إنْ هي إلا أسماء سميتموها أنتم) وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية.

٢ ـ قوله تعالى: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) والألسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها. ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر. فالمراد هي اللغات.

٣ ـ وهو عقلي: فلو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها الى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة، يعود اليه الكلام، ويلزم اما الدور أو التسلسل في الأوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاء الى التوقيف.

وبناء على كلام أهل التوقيف، لا يجوز قلب اللغة مطلقاً: فلا يجوز تسمية الثوب فرساً مثلاً.

وقدّم ابن جني تفسيراً آخر هو أن الله (تبارك وتعالى): علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والسريانية والفارسية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات. فكان هو وولده يتكلمون بها، ثم ان ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها عهدهم بها.

٢ـ نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:

تذهب هذه النظرية الى أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، كأصوات الحيوانات وأصوات مظاهر الطبيعة، التي تحدثها الأفعال عند وقوعها، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الانسانية وتقدم الحضارة.

وذهب الى هذه النظرية ابن جني قديماً، و"ويتني" حديثا في القرن التاسع عشر.

وليست هذه النظرية من اختراع "ماكس ميلر"، كما أشار بعضهم بل عرفها العلامة ابن جني. وذكر أنه نقله عمن سبقه، مما يدل أنه كان مذهباً شائعاً ومقرراً، إذ يقول: وذهب

بعضهم الى أن أصل اللغات كلها، انما هو الأصوات المسموعات كدوي البحر وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار ونعيق الغراب... ثم ولدت اللغات عن ذلك في ما بعد.

وقد كان ابن جني معجبا بهذه النظرية، إذ أفرد لها باباً في كتاب (الخصائص) سماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، قال فيه: (ولو لم يتنبه على ذلك الا بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازبار لصوته، والبط لصوته ونحو ذلك قولهم حاحيت، وعاعيت، هاهيت، اذا قلت حاء، عاء، هاء، وقولهم: بسملت، هللت، حوقلت. كل ذلك أشباهه انما يرجع اشتقاقه الى الأصوات والأمر أوسع).

والواقع أن لهذا النظرية ما يؤيدها، فالطائر المسمى في الانجليزية CUOKOO الى جانب الهرة المسماة "مو" في المصرية القديمة.

ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه النظرية هي أقرب النظريات الى الصحة والى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء.

ومن أهم أدلتها:

١ ـ أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الانسانية، تتفق في كثير من وجوهها، مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل: فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الارادي الى محاكاة أصوات الطبيعة، فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به.

٢- وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة (وفي بدء مرحلة الكلام) يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي، على الاشارات اليدوية والجسمية.

نقد النظرية:

وجه الى هذه النظرية انتقاد أساسي، فهي من جهة تعجز عن تفسير مبدأ كيفية (حكاية الأصوات)، في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أي علاقة بين معناها وصوتها. فما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه، مثلاً؟

٣ ـ نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح

تقرر هذه النظرية أن اللغة ابتُدعت واستُحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتُجلت ألفاظها ارتجالاً. ومال كثير من العلماء والمفكرين الى هذه النظرية، منهم: الفيلسوف اليوناني ديموكريط وأرسطو والمعتزلة. وقال بها من المحدثين أيضاً: آدم سميث الانجليزي.

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي او نقلي أو تاريخي، بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، وعهدنا بهذه النظم، إنها لا تخلق خلقاً،

بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. اضافة الى ذلك فالتواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون فبأي لغة تواصل هؤلاء؟

هذه النظريات هي أشهر النظريات، وهناك نظريات أخرى نكتفي بذكرها من دون تفصيل، منها:

١ ـ نظرية الأصوات التعجبية العاطفية: نظرية pooh _ pooh

٢ ـ نظرية الاستجابة الصوتية للحركة العضلية: نظرية yo _he –ho

٣ـ نظرية جسبرسن الذي طالب بدراسة وافية للغة الطفل، ولغات القبائل البدائية، ودراسة تاريخية للتطور اللغوي. كل ذلك من أجل التوصل الى معرفة كيفية نشأة اللغة الانسانية الأولى وفق منهج علمي.

٤ ـ نظرية فندريس: الذي يرى أن اللغة كانت لدى الانسان الأولى انفعالية محضة.

٥ـ نظرية النشوء والتناسل: وترى هذه النظرية أن اللغة نشأت بالطفرة تلقائياً، فتفترض أن اللغة نشأت متكاملة في لحظة معينة ثم أعقبها التوالد والتكاثر.

من ذلك نستنتج أنه لا توجد نظرية واحدة يمكن أن تفسر نشأة اللغة الانسانية وأن ثلاث نظريات متكاملة يمكن أن تفسر ذلك. فالله (سبحانه وتعالى) أهّل الإنسان وأعطاه القدرات الخاصة، فألهمه لكي ينطق وينشئ اللغة.

بهذه القدرة استطاع الانسان الأول أن يضع كلماته وجمله الأولى، بالإصغاء والملاحظة والتقليد، لما يوجد حوله في الكون. ولما تقدم الانسان، وارتقى في التفكير، بدأ بوضع كلمات جديدة بالتواطؤ والاصطلاح الذي ما زال مستمراً الى يومنا هذا، بل الى قيام الساعة.